عوامل انتشار المذهب المالكي في غرب إفريقيا

د. زونغو سعيد
جامعة الهدى / واغادوغو / بوركينا فاسو

الملخص:
يمكن القول: إنّ هناك مجموعة من العوامل تضافرت لانتشار المذهب المالكي في إفريقيا الغربية، وعلى رأسها عناية ملوك بلاد المنطقة ورعايتهم للفقه والفقهاء، وتوفير الحرية الفكرية للعلماء واحترامهم، وإمكانات البلاد الهائلة، وسيادة الأمن في كافة أرجاء البلاد، واعتماد القضاء والفتوى على الفقه المالكي وغيرها من الأسباب التي تفاعلت فيما بينها وتضافرت فأعطتنا حركة فقهية مزدهرة طارت شعاعها في كافة أرجاء غرب إفريقيا وأنارت الطريق للمجتمع.
نتيجة للعوامل التي ذكرناها، اشتهرت مدن علمية مثل: تنبكت وجني وغاو تستقطب رجال الفكر والعلم من كافة الأمصار الإسلامية. وغدت المنطقة مشعلاً من مشاعل العلم والمعرفة، ولهذا أخذ الطلاب يفدون إليها من كل حدب وصوب لتلقي العلم. وفي هذه الفترة دونت كثير من كتب الفقه المالكي من طرف علماء المنطقة من شروح وحواشي وتعليقات إلى غير ذلك من التقييدات الفقهية التي لا تخلو من فائدة. ومما زاد من ازدهار حركة الفقه المالكي في غرب إفريقيا كثرة الحوادث والنوازل مما جعل العلماء يضطرون إلى الاجتهاد لإيجاد حلول مناسبة لهذه النوازل الجديدة التي لم تكن معروفة من قبل.

Résumé:
On peut dire: Qu’il y a une série de facteurs qui se sont combinés pour la propagation de l'école malikite en Afrique de l'Ouest, en particulier l'attention des rois de pays de la région et leur soins à des universitaires, la fourniture de la liberté intellectuelle et le respect pour les scientifiques, le potentiel de ce pays vaste, l'état de la sécurité dans toutes les régions du pays, l'adoption de la magistrature et la fatwa sur le fiqh al-Maliki et d'autres des raisons qui ont interagi les uns avec les autres et ont travaillé ensemble pour le mouvement doctrinal rayons prospère volaient dans toutes les régions d'Afrique occidentale et montré la voie pour la communauté.
Résultat des facteurs dont nous avons parlé, des villes célèbres, tels que: Tombouctou , Djenné et Gao attiraient les scientifiques et hommes d'intelligence et de connaissances de toutes les régions de l'Islam. La région est devenue un phare de sciences islamiques, et que les étudiants ont commencé à arriver de partout dans le monde à recevoir le savoir.

Dans cette période, a enregistré de nombreux livres de fiqh al-Maliki par les érudits de la région des annotations, des notes, et commentaires des autres limitations jurisprudence qui n'est pas sans intérêt. Ajout à l'épanouissement du fiqh al-Maliki en Afrique de l'Ouest, le grand nombre d'événements que les savants, ce qui rend les scientifiques doivent s'efforcer de trouver des solutions appropriées à cette nouvelle calamité qui n'étaient pas connus par avant.

المقدمة

عرفت منطقة إفريقيا جنوب الصحراء ما بين القرن التاسع الهجري والقرن الثالث عشر حركة علمية مزدهرة ونشطت نشاطاً ملحوظاً في جميع مجالات المعرفة وخاصة الفقه المالكي منها، الذي ازدهر ازدهاراً عجيباً ونضج نضوجاً كاملاً، وأتى ثمارها للناس، وزوّد مجتمع بلاد السودان بكل ما يحتاج إليه من تشريع. فظهرت في هذه الفترة نوابغ من الفقهاء المالكيين في المنطقة، الذين تركوا بصمات واضحة على الحركة الفقهية في إفريقيا الغربية، ذاعت شهرتهم في الآفاق.

والسؤال المطروح هنا، ما السر في انتشار المذهب المالكي في إفريقيا الغربية؟ وما هي العوامل التي ساهمت في انتشاره؟ وما مكانة الفقهاء المالكيين في التمكين لمذهبهم في غرب إفريقيا؟ و هل نجح هذا المذهب في أداء رسالته في المنطقة؟.

هذا البحث المتواضع عبارة عن محاولة لإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها قدر الاستطاعة.

أهم عوامل انتشار المذهب المالكي في غرب إفريقيا:

1- رعاية ملوك المنطقة للحركة الفقهية:

اعتنى ملوك غرب إفريقيا بالحركة العلمية بصفة عامة والحركة الفقهية بصفة خاصة فاهتموا بالفقهاء والطلبة وشجعوا العلماء على التحصيل والاجتهاد والإنتاج. وتظهر هذه العناية في تقريبهم الفقهاء والرجوع إلى آرائهم واستفتائهم واستشارتهم في أمور الدولة والحوادث المتجددة.

فهذا منسا موسى بعد رحلته الشهيرة إلى الحج عرف بأنه استقدم عدداً كبيراً من العلماء ولاسيما من مصر والمغرب والأندلس لتنشيط الحركة الفقهية في بلاد السودان فامتلأت بلاده بالعلماء من السود والبيض[1].

وهذا منسا سليمان اقتفى أثر أسلافه " بنى المساجد والجوامع والمواذن وأقام به الجمع والجماعات والآذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه..."[2].

وهذا أسكيا محمد الكبير لما وصل إلى الحكم ".. صاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد ..."[3].

ومن مميزاته "حب العلماء والصالحين والطلبة... والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم..."[4].

ولما توفي سن خلفاؤه هذه السنة الحميدة، فهذا ابنه أسكيا داود كان شديد الاحترام للعلماء والتواضع لهم ويقول:

" لو لا العلماء لكنا من الهالكين"[5]وهو أول من اتخذ خزائن الكتب من الأمراء وله نساخ ينسخون له الكتب وربما يهادي به أحد العلماء[6]. وقد اشترى قاموساً لأحد العلماء بثمانين مثقالاً[1].

---

[1] يراجع: دولة مالي الإسلامية، إبراهيم طرحان، ص 147-151./ الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، أبو بكر إسماعيل، ص 37 .

[2] يراجع: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري، ص 59-60./ صبحي الأعشى للقلقشندي، ج5، ص 297 ./ تاريخ السودان للسعدي، ص 57. أبوبكر إسماعيل، ص 83-84 .

[3] تاريخ السودان للسعدي، ص 72 .

[4] تاريخ الفتاش لمحمود كعت، ص 59 .

[5] نفس المصدر، ص 113 .

[6] نفسه، ص 94

وهذا أسكيا إسحاق: فكان كريماً ... بلغ غاية من التصدق والعطاء وكان محباً للعلماء ومكرماً لهم..."[2].

وهذا سلطان كياك كان يأتي بالطعام لطلبة العلم ويأكلونه وهو واقف يحمل الإناء لهم..[3].

وحسبك في هذا الأمر أيضاً ملوك الماسنيين الذين بلغ احترامهم للعلم والعلماء إلى درجة أنهم وضعوا شرطاً لمن يكون عضواً في المجلس الأعلى للدولة أن يكون عالماً[4].

ولا شك أن هذا الاهتمام وهذه العناية الكبيرة الفائقة بالعلماء من طرف ملوك السودان وأمرائه وحكامه، على اختلاف عصورهم قد أعطت للحركة الفقهية نفساً مهماً للازدهار والتقدم.

2 – عقد المجالس العلمية والاهتمام بشؤون الطلبة:

اهتم الأهالي والملوك على الخصوص بعقد المجالس العلمية في بيوتهم والعناية بالطلبة. وفي هذا الإطار استدعى أسكيا عبد الكريم المغيلي لإلقاء الدروس في مدينة غاو عاصمة المملكة، كما كانت له علاقة وطيدة مع جلال السيوطي الذي لم يتوقف في استشارته في أموره حتى توفى. واستقدم ملوك الماليين مجموعة من العلماء إلى البلاد للتدريس.

---

[1] نفسه، ص 108

[2] نفسه، ص 143

[3] الفتاش، ص 179-180 .

[4] يراجع: مملكة ماسنا، همباتي وبا داغي، ج1، ص 54.

3- اقتناء ملوك السودان الكتب النفيسة ووضعها رهن إشارة العلماء وفي متناولهم:

فهذا منسا موسى بعد رجوعه من الحج اشترى كتباً كثيرة لتزويد علماء بلده وكذا فعل مانسا سليمان الذي استقدم فقهاء وعلماء مالكيين، واشترى كتباً فقهية كثيرة لإنعاش الحركة الفقهية في السودان الغربي[1].

وهذا أسكيا داود اشترى للفقيه محمود كعت القاموس المحيط في تنبكت بثمانين مثقالاً[2].

وهكذا أصبح الرجوع إلى المصادر الأصلية سهلة وميسرة، مما سهل الأمور للعلماء والطلبة وشجعهم على التحصيل والاجتهاد في طلب العلم.

4- تقديم الهبات المالية للعلماء وتعظيمهم من قبل ملوك السودان ودفع الأجور للأساتذة ومساعدة الطلبة مساعدة مادية ومعنوية للانقطاع لطلب العلم، ويتكلف بهذا الأمر القضاة[3].

وفي هذا الصدد اشترى أسكيا لما زار الحرمين جناناً بمائة ألف دينار ذهباً وحبسها على الفقراء والعلماء والمساكين[4].

كما أعطى الشريف الحسني (ابن الصقلي) مائة ألف دينار وخمسمائة خادم ومائة إبل ضيافة...[5].

ولما زار الحسن الوزان المنطقة وجد " في تمبكت عدداً كثيرا من القضاة والفقهاء والأئمة يدفع إليهم الملك مرتباً حسناً ويعظم الأدباء كثيراً..."[6].

5- الأمن والثراء والرخاء التي امتاز بها بلاد السودان وخاصة في عهد الملوك الأقوياء، من أهم الأسباب في ازدهار حركة الفقه المالكي حتى قال كعت: "مع الهناء والعافية التي خص الله بها أهل تنبكت وترى منهم مائة رجل ليس لأحد منهم حريش ولا سيف ولا مدية إلا المنساة...".

---

[1] يراجع: العمري، ص 59-60./ القلقشندي، ج5 ،ص 297 ./ السعدي، ص 57. أبو بكر إسماعيل، ص 83-84 .

[2] يراجع: تاريخ الفتاش، ص 109 .

[3] يراجع: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين،ص 76، 141

[4] يراجع: تاريخ الفتاش، ص 16./ أبو بكر إسماعيل، ص39 .

[5] يراجع: تاريخ الفتاش، ص 18 .

[6] يراجع: وصف إفريقيا، ج 2 ،ص 167 .

وقال أيضاً عن بلدة جعب لشدة أمنها يقال له بلد الفقهاء " ... لا يدخله سلطان مل وليس لأحد حكم فيه إلا قاضيه ومن دخله كان آمناً من ضيم السلطان وجوره ومن قتل ولد السلطان لا يسأله السلطان بدمه يقال له بلد الله..."[1].

وقد ساعد هذا العامل كثيراً على جلب عدد كبير من ذوي العلم إلى المنطقة، فالأمن عنصر هام لازدهار أي شيء، ولهذا لما ساد في إفريقيا جنوب الصحراء الأمن والأمانة اتجه العلماء صوبه.

وقد اعترف ابن بطوطة بهذه الحقيقة لما زار المنطقة، فقال:حين تحدث عن الأفعال الحسنة في السودان:

"... فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا من غاصب..."[2].

6- توافد العلماء من المشرق والمغرب والأندلس إلى المنطقة وخاصة تنبكت إثر سقوط الأندلس وبغداد. فقد وجد هؤلاء الوافدون ترحيباً كبيراً لدى الأهالي واستقبالاً فريداً من نوعه من ملوك السودان، لهذا فجروا طاقاتهم لازدهار الحركة الفقهية.

7- إمكانات البلاد الهائلة وظروف التجارة المربحة: فقد عرفت المنطقة عالمياً وخاصة تنبكت بثرواتها الطائلة، مما جعل العلماء والفقهاء يقتفون أثر التجار، إذ ذلك يمكنهم من التفرغ للعلم، فلما استوطنوا المنطقة شاركوا في ازدهار النهضة الفقهية في السودان.

ومما يدل على إمكانات البلاد الهائلة ما ذكره العمري عندما تحدث عما وجده التجار المصريون من الربح مع الماليين لما زاروا مصر في طريقهم إلى الحج، فقال " ... إن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الثوب أو الإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي ديناراً واحداً. وكانوا في غاية سلامة الصدر والطمأنينة تجور عليهم مهما جور عليهم، ويأخذون كل قول يقال لهم بالقبول والصدق..."[3].

وقد أكد هذا الأمر الحسن الوزان، حينما تحدث عن زيارته لبلاد السودان فقال: " ...تستعمل قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة والودع لشراء الأشياء التافهة..."[4].

ومما يدل على ربح التجارة في بلاد السودان ما ذكره العمري حين قال "... إن المعاملة في بلاد التكرور بالودع، وإن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع، وتستفيد به فائدة جليلة..."[5].

وكذلك ما ذكره الحسن الوزان لما زار المنطقة "... وتباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر وتدر أرباحاً تفوق سائر البضائع..."[6].

ومن أهم ما يؤكد غنى بلاد السودان وثرائه، المثل المغربي القائل:

إن جرب جملك فعليك بالقطران وإن افتقرت فسافر إلى السودان[7].

ولا شك أن هذه النصوص التي جلبنا هنا وغيرها من النصوص التي تضيق المقام لجلبها تدل دلالة واضحة على أن بلاد السودان كانت منطقة غنية جداً، تسيل اللعاب، مما جعله كعبة يتجه إليها الناس من كل حدب وصوب.

8- كثرة الكتب والمخطوطات التي ترد على أسواق السودان وخاصة تنبكت بكمية كبيرة مما جعل مكتباته تزخر بأهم الكتب المعروفة في ذلك العصر في مختلف الفنون.

وقد ذكر الحسن الوزان أن بيع الكتب تدر أرباحاً هائلة لأصحابها تفوق سائر أرباح السلع الأخرى[8]. الأمر الذي جعل تجار الكتب يتجهون نحو المراكز العلمية في السودان لينالوا جزءاً من هذا الربح العظيم. وقد أدى تطور تجارة الكتب إلى ازدهار الكتابة أو النسخ.

---

[1] - نفسه، ص 179.

[2] – يراجع رحلة ابن بطوطة ص: 672.

[3] - يراجع: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 73 .

[4] - يراجع: وصف إفريقيا، ج2، ص 167.

[5] - يراجع: مسالك الأبصار للعمري، ص 71 ./ القلقشندي، ج5، ص 292 .

[6] - يراجع: مسالك الأبصار للعمري، ص 71 ./ القلقشندي، ج5، ص 292 .

[7] - يراجع: إفريقيا في ظل *الإسلام، نعيم قداح، ص 131 .*

[8] - يراجع: وصف إفريقيا، ج2، ص 167 .

على أن مما لا مراء فيه أن سهولة تناول الكتب والحصول عليها في أقرب وقت عند الحاجة إليها ساعد كثيراً على ازدهار النهضة الفقهية في السودان الغربي.

9- حرية التفكير والعمل:

كان من أسباب ازدهار الحركة العلمية بصفة عامة والحركة الفقهية بصفة خاصة تمتع علماء بلاد السودان بحرية تامة في تفكيرهم في مجال العلم، والعمل بما يؤمنون به من رأي وما تطمئن إليه قلوبهم دون خوف من أحد، الأمر الذي شجعهم على تطوير بنات أفكارهم والخوض في كل مسائل الحياة اليومية فجاءت انتاجاتهم غزيرة جريئة.

10- إخلاص العلماء في عملهم:

كان فقهاء بلاد السودان حريصين كل الحرص على أن يقدموا كل ما لديهم من العلم للطلبة أثناء التدريس بكل إخلاص ووعي وصبر وصدق، مما جعل الحركة الفقهية تطفر طفرة مهمة إلى الأمام.

وهذا السعدي يصف أحدهم بقوله: له" صبر عظيم على التعليم أناء النهار وعلى إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا ضجر حتى يمل حاضروه..."[1].

11- مثابرة الطلبة السودانيين واجتهادهم في طلب العلم، ورحلاتهم إلى الخارج لتحصيل العلم في مراكزه الأصلية، وعند رجوعهم، يحاولون نشر ما تعلموه من علم وأدائه بأمانة. ولشدة حرصهم على التعليم والدراسة، كان البعض منهم يستغلون حتى الليالي المقمرة للمطالعة[2] الأمر الذي يبين اهتمامهم الكبير بالعلم وتفانيهم في سبيله.

12- من أسباب ازدهار الحركة الفقهية اهتمام ملوك بلادالسودان ببناء المرافق العلمية في كافة أنحاء البلاد- وقد وصل عدد المدارس في عهد ملوك الماسنيين ما يفوق 600 مدرسة- مما سهل لطلاب العلم أخذ العلم في مراكز مختلفة، دون التنقل أحياناً إلى أماكن بعيدة يصعب للطالب أن يصل إليها إلا بعد مشقة وعناء[3]

13- احترام العلماء:

كان من أسباب ازدهار الحركة العلمية بصفة عامة والحركة الفقهية بصفة خاصة احترام أهالي بلادالسودان العلماء، ملكاً وشعباً، فقد وجد العلماء احتراماً كبيراً لدى السودانيين مما جعلهم يخلصون في عطاءاتهم الفكرية، وقد وصلت مكانة العلماء في السودان درجة، أحياناً تفوق درجة الملوك.

وهذا أسكيا محمد الكبير لا يعارضه في أموره " إلا القاضي...ولا يجلس معه على سريره إلا الشرفاء... ولا يقوم لأحد إلا للعالم والحجاج إذا قدموا من مكة ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم..."[4]

وهذا أسكيا داود كان شديد الاحترام للعلماء وكذا أسكيا إسحاق الذي كان محباً للعلماء ومكرماً لهم.

ولشدة احترام السودانيين للعالم يعتبرون بيته مقدسا لا يدخل فيه أحد، ومن التجأ إلى داره فقد أمن من الإيذاء[5].

ومما يؤيد احترام السودانيين للعلماء أنه حتى الملك على بير الذي عرف بقسوته على العلماء فإنه يقر بفضلهم ويخضع لهم أحياناً، حيث يقول " لو لا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب، ويفعل الإحسان في آخرين ويحترمهم"[6].

---

[1] - يراجع: السعدي، ص 44 .

[2] - يراجع: السعدي، ص93 .

[3] - يراجع: العمري، ص 59-60 ./ القلقشندي: ج5، ص 297 ./ تاريخ الفتاش: ص 59. مملكة ماسنا: همبتي با وداغي، ص 49 ./ أبو بكر إسماعيل: ص 89-90 .

[4] - يراجع: تاريخ الفتاش، ص 11، 59 ./ أبوبكر إسماعيل: ص 41-42، 89-90 .

[5] - يراجع: تاريخ الفتاش، ص 94، 108، 143.

[6] - يراجع: تاريخ السودان، ص 67 .

ويضاف إلى ما سبق ذكره أن آكل حاكم تنبكت من الطوارق - لما سمع بمجيء علي بير إلى تنبكت " أحضر ألف جمل رحل فقهاء سنكري ومشى بهم إلى بير فقال إن شأنهم هو الأهم عليه" حتى لا يؤذيهم علي بير أثناء حملته على تنبكت[1].

ولا شك أن هذا الاهتمام الذي أولاه السودانيون ملكاً وشعباً للعلماء جعلهم يبذلون قصارى جهدهم لازدهار الحركة الفقهية.

14- انتعاش حركة العلماء بين مدن بلاد السودان

كان من أسباب ازدهار الحركة الفقهية في السودان انتعاش تنقل العلماء بين المدن السودانية، فقد كان أهل العلم وطلابه في حركة دائبة بين المغرب والسودان، وبين مصر والسودان وبين المدن السودانية مما أتاحت الفرصة لطلبة العلم في بلاد السودان أن يأخذوا عن أكثر من عالم، وأن ينوعوا معارفهم، ويزيد من عدد إجازاتهم، الأمر الذي جعل الحركة الفقهية تنتعش انتعاشاً كبيراً ويثير التنافس بين عوالي الهمة من الطلبة للأخذ عن أفذاذ العلماء الذين يفدون إلى السودان[2].

15- رحلات الملوك إلى الحج:

من أسباب ازدهار الحركة العلمية عامة والحركة الفقهية خاصة في السودان الغربي رحلات الملوك إلى الحج، حيث يحدث اتصالات مهمة بين العلماء والملوك من جهة، وبين العلماء المرافقين للملوك وعلماء المشارقة من جهة أخرى. وينتج عن هذا اللقاء تبادل ثقافي وعلمي بين العلماء، وإيفاد بعض العلماء إلى السودان، وشراء كتب علمية، وكل ذلك يكون لصالح الحركة الفقهية وازدهارها. ومما يمكن ذكره هنا رحلة منسا موسى إلى الحج ورحلة الحاج أسكيا الكبير، فقد تركت هاتان الرحلتان صدى كبيراً في كتب التاريخ، وتركتا بصمات واضحة على ازدهار الحركة العلمية في السودان[3].

وإلى جانب رحلات الملوك إلى الحج هناك الرحلات التي يقوم بها العلماء إلى الحج، فقد كانت هذه الرحلات بمثابة فرصة لبعض علماء بلاد السودان، فيلتقون بأكبر علماء عصرهم ويتبادلون معهم الآراء في مجال شتى، ويطلبون منهم الإجازة[4].

---

[1] - يراجع: نفس المصدر، ص 65 .

[2] يراجع: إفريقيات نقولا زيادة، ص 350 ./ أبو بكر إسماعيل، ص 39 .

[3] يراجع: العمري، ص 70-74 ./ تاريخ الفتاش، ص 34-37 ،65-68 .

[4] يراجع السعدي: ص 37-47 .

ويضاف إلى رحلات العلماء والملوك إلى الحج، الرحلات العلمية التي يقوم بها بعض الطلبة والعلماء إلى المغرب والمشرق، فكل هذه الرحلات انعكس إيجابياً على مستوى العلماء والطلبة وعلى مستوى الحركة الفقهية في السودان الغربي.

16- اعتماد القضاء على الفقه الإسلامي

كان من أسباب ازدهار الحركة الفقهية في السودان اعتماد القضاء على الفقه الإسلامي، إذ حاول بعض ملوك السودان أن يردوا الاعتبار للفقه الإسلامي وينصبوا قاضياً في كل بلد يستحقه ليفصل بين الناس بموجب الشريعة الإسلامية[1]، الأمر الذي جعل الفقهاء يجتهدون ويبحثون حلولاً مناسبة لما يجد ويحدث في المجتمع من النوازل، مما جعل الفقه الإسلامي في السودان فقهاً حياً يواكب التطورات والحوادث التي تحدث في المجتمع فازدهرت الحركة الفقهية.

17- وهناك أيضاً عنصر مهم ساعد كثيراً على تنشيط حركة الفقه المالكي وهو كثرة الدعاوى والمرافعات وخاصة في القرن الثاني عشر والثالث عشر مما جعل الفقهاء والقضاة في تفكير دائم لإيجاد حلول لها.

[1] يراجع: العمري، ص 59-60 ./ تاريخ الفتاش، ص 59 ./ أبو بكر إسماعيل: ص 89-90.